أسلمة العلوم الإنسانية عند العلامة فضل الله رحمه الله

الشيخ ياسر قطيش[١]

مدخل:

من المعروف أنّ الغرب، طيلة مراحل استعماره للبلاد العربية والإسلامية، قد ضيّق من أفق التعليم، وقلّل من فرص التحاق أبناء تلك البلاد في حقوله المختلفة، ولم يعمل إلاّ على تأسيس عدد من المدارس والجامعات الأكاديمية والتبشيرية التي كانت تستهدف تدمير الخصوصيات الثقافية، وتحويل العقائد باتّجاه التنصير، أو العلمانية، وإعداد مجموعات من الموظّفين لمساعدته في إدارة بعض شؤون مستعمراته، وخدمة سياساته، وتدريب بعضهم، بصفتهم نخبة أو قيادات تابعة، على حدّ تعبير العلامة فضل الله رحمه الله: «**لرأيت أنّهم - أي الذين أُتيحت لهم فرصة التعلّم والإبداع في ظلّ الاستعمار- يعملون في الدوائر العلمية الأمريكية والأوروبية، وفي أجهزة الفضاء، حيث يكتشفون ويخترعون ويبدعون، ولكن تحت العنوان الأمريكي وتحت العنوان الأوروبي**»[٢]. لهذا لعب التعليم عبر تلك المراحل دوراً كبيراً في

(١) أستاذ في الحوزة العلمية، من لبنان.
(٢) فضل الله، محمد حسين: الندوة، ج٧، ص٥٤٥.

تحطيم الإحساس بالهوية والكرامة، وأسهم في تشريب القيم الغربية في ذهنيّة المتعلمين ووجدانهم من العرب والمسلمين، على النحو الذي كرّس الشعور بالدونيّة والخضوع من جهة، وإعلاء القيم الذاتية والنفعية من جهة أخرى، فضلاً عن قتل روح المبادرة، وإيجاد حالة من الازدواجية في الفكر والسلوك. «**ولذلك نجد أنّ الدول الاستعمارية الكبرى تلجأ إلى هذا الأسلوب - أيّ بثّ مشاعر الضعف الذاتي - لتحصل من خلاله على ربح المعركة مقدّماً، في صراعها مع الشعوب أو الدول الصغيرة، عندما تُدمّر في داخلها روح المقاومة، بإثارة كلّ عناصر الضعف، وتعمّقه في نفوس هذه الشعوب بمختلف الأساليب الإعلامية...[و] نجد - إلى جانب ذلك - الأبحاث والدراسات التي تركّز على التفوّق الفكري والعلمي لدى شعوب هذه الدول، ما يخلق عقدة الشعور بالدونية، والضعة، والانسحاق أمام تلك الإمكانات الفكرية... فتفقد بذلك القدرة على الطموح ومواجهة قضايا التقدّم والتطوّر في الحياة من موقع الأصالة...**»[١].

وقد قدّم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنّه يخلق منّا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار. «**لقد اشتروا أدمغتنا ووظّفوها في حضارتهم**»[٢]، حيث أراد المستعمرون للعالم الإسلامي أن يظلّ في سويّة ثقافية منحطة، حتى يخرج تلاميذه على يديه أشدّ انحطاطاً.

لقد أراد المستعمرون للمثقّفين المسلمين أن يفكّروا بكلّ شيء في الغرب، ولكن لم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الإسلامي، «**ولم يرق لهم أن يجري المسلمون في حياتهم على أساس الإسلام، لأنّ ذلك لن يمكّنهم من فرض السيطرة على مقدّرات المسلمين**»[٣]، فالتعليم الذي أعطوه للمسلمين كان يتّجه إلى إذابة شخصيّتهم، وإضفاء

(١) فضل الله، محمد حسين: قضايانا على ضوء الإسلام، ص٨٨٨٧.
(٢) فضل الله، الندوة، م.س، ج٧، ص٥٤٥.
(٣) فضل الله، محمد حسين: الإسلام ومنطق القوة، ص٦٦٦٥.

الطابع الغربي عليها، بل إضاعة مدنيّتهم وحضارتهم وثقافتهم، وإذابة إنسانيّتهم، من أجل أن يخلق فيهم المركّبات المضاعفة التي تنتهي بهم إلى أن يصبحوا غربيّين أكثر من الغربيّين.

وإجمالاً، يمكن القول: إنّ القيم والاتّجاهات التي كان يتمّ غرسها في سياق المنهج التعليمي تقوم على إضعاف الذات، وتفتيت الهوية في مختلف مقوّماتها، الدينية واللغوية والاجتماعية، ناهيك عن بثّ روح الفرقة، ومحاربة القيم المحلّية. وبالتالي لم يكن التعليم يستهدف غير تكريس فقدان الثقة، والحيلولة دون امتلاك الوعي وحيازة الفاعلية.

وإذا كان هذا هو واقع التعليم العامّ في المراحل الاستعمارية، وهذه هي أهدافه، فإنّ المعرفة الإنسانية والاجتماعية التي كانت تُقدَّم على الصعيد الجامعي لم تكن تختلف عن هذه «**المنهاجيّة**» في أهدافها. أمّا المضمون أو المحتوى المعرفي فلا يخرج عن مسلّمات العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية ومفاهيمها ونظرياتها، الأمر الذي جعل من الصفوة الجامعية أدوات لإعادة إنتاج الثقافة الغربية ورؤيتها نحو العالم.

وإنّه على الرغم من انتشار التعليم الجامعي، والتوسّع فيه في ظلّ مرحلة الاستقلال، إلاّ أنّ الوضع لم يتغيّر كثيراً على الصعيد المعرفي والمنهجي، حيث ظلّ المسلم في موقف التابع للعلوم الغربية ومناهجها، بما تنطوي عليه من مسلّمات ومناهج ونظريات. وبالتالي ظلّ التعامل معها كما لو كانت علوماً «**طبيعية**»، الأمر الذي يؤكّد أنّ الاستقلال السياسي الذي نالته الدول المسلمة لم يتبعه استقلال ثقافي ومعرفي. فهذه مدارسنا وجامعاتنا في الوطن العربي المسلم، تابعة للنظام التعليمي الفرنسي والبريطاني والأمريكي في أغلب مناهجها وأنظمتها التربوية. وبرامجها الدراسية تماثل - إلى حدّ كبير- البرامج الدراسية المتّبعة في مدارس الغرب وجامعاته.

فالعلوم الإنسانية والاجتماعية والقانونية، التي تقدّمها الجامعات في

البلدان المسلمة، هي نتاج العلوم الغربية التي لا صلة لكثير من مضامينها واتّجاهاتها بالبيئة المسلمة، ولا يمكن لأطروحاتها أن تخدم قضايا هذه البيئة، أو تحدث تطوّراً ثقافياً أو اجتماعياً فيها، بل على العكس، فقد أدّى انتشار هذه العلوم (المستوردة) في بلادنا، ولا سيّما العلوم الإنسانيّة، إلى خلق الكثير من المشاكل والمصاعب في المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي ترك انعكاساته الخطيرة على الصعيد التعليمي والتربوي، حيث أمست المواد والمقرّرات التي تحكم أغلب مناهج التعليم في المدارس والجامعات، في مختلف بلدان العالم الإسلامي، مبنية على هذه العلوم، الأمر الذي هيّأ لظاهرة التبعية المعرفية والعلمية والتعليمية، والتي كان من نتائجها تغريب العقل المسلم، وتزييف معاني العلم والتربية، والتجهيل بحقيقتهما المركّبة، فلا برامج منبثقة عن الواقع ومعبّرة عنه، لا على مستوى المنهج، ولا على مستوى الاهتمامات، وفقدت المؤسّسات التعليمية قيمتها وأصالتها وذاتها، لأن العلوم الغربية هي الأصل، كما هي الفكرة السائدة والمسيطرة حتى الآن.

ولكن، حين انتبه بعض علماء المسلمين ومربّيهم - منذ الثلث الثاني من القرن العشرين- إلى هذه الوضعية، وأدركوا حقيقة ما تنطوي عليه العلوم الغربية من مسلّمات ومنطلقات مغايرة، ومن حقائق نسبية، ظهرت محاولات لتأصيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبدأ التفكير بإعادة النظر في وضع المناهج التعليمية، والدعوة إلى إعادة بنائها، وفقاً لما يتمّ إنجازه في حقل التأصيل المذكور، أي إلى اعتماد المنهجيات المعرفية والمناهج التعليمية الإسلامية الأصيلة ضمن مشروع إسلامية المعرفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

وعندما نتحدّث عن أسلمة العلوم الإنسانية عند العلامة السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله لا نملك معالجة عملية مستقلّة مدوّنة تركها لنا في هذا الخصوص، فلا توجد له في هذا المضمار دراسة، لا من الزاوية

الفكرية العامّة ولا من غيرها، بحيث يقدِّم فيها حلاً لهذه الإشكالية المنتقّلة، التي عرفها العالم الإسلامي منذ النهضة الأخيرة فيه، إلا من خلال بعض الأجوبة عن بعض الأسئلة الفكرية والمحاورات الصحفية.

إذن، فنحن مضطرّون، لكي ندرس إشكالية أسلمة العلوم عند السيد فضل الله رَحِمَهُ اللَّهُ، إلى أن نقوم بتحليل بعض أفكار السيد فضل الله ومواقفه، ومقاربتها من خلال كلماته ومحاضراته، علّنا نخرج باستنتاج ما في هذه المسألة.

أوّلاً: أبرز مبرّرات طرح مشروع أسلمة العلوم الإنسانية:

مضافاً إلى ما ذُكِرَ في المقدّمة يمكن أن يُطرح مبرّر هامّ وأساس للدعوة إلى أسلمة العلوم الإنسانية، هو: أنَّ الكنيسة في أوروبا حَجَرت على العلماء والمفكّرين أفكارَهم وإبداعاتهم، فكان كلُّ من يقول: الأرض كروية، أو الأرض تدور يُشنَق أو يُحرَق بأمر من الكنيسة، التي كانت تُهيمن على الناس، وترغمهم على الانصياع لتعاليمها، فنشأ بسبب ذلك رَدّ فعل من المجتمع، أدَّى إلى الإطاحة برجالات الكنيسة، الذين كانوا يقفون من ورائها.

وقامت الثَّورات في جميع بُلدان أوروبا، وسقطت تعاليم الكنيسة ورجالُها. وبسبب بُغض الناس للكنيسة في أوروبا، لأنَّها كبتتهم وظلمتهم، نشأ ردُّ فعل يُعادي الأديان ويقدِّس العلم، ويعتقد أنَّ الدين ضِدّ العلم، وأنَّه لا يُمكن أن يتَّفق العلم مع الدين، وصار دينهم هو العلم، وصاروا يعتقدون أنَّ العلم الماديَّ هو كلُّ شيء، وأنَّه كما نجحت العلوم المادّية نجاحاً كبيراً، فإنَّ العلوم الإنسانيَّة سوف تنجح كذلك نجاحاً كبيراً، ولن يعودَ النَّاسُ بحاجة إلى دين، طالما أنَّ علمَ الاجتماع قد وضع لهم النظريَّات، التي تحكُم حياتَهم.

فظهرت من جرَّاء ذلك نظريات علم الاجتماع التي لا تراعي نظرة الديانات السماوية إلى المجتمع، بل تنكر الإله والرُّسل وجميع تعاليم

الدين، فترك الناسُ في أوروبا تعاليم الكنيسة وألحدوا، وفُصِلَ الدِّينُ عن العلم، بل فُصِل الدين عن الحياة. ثمَّ إنَّ علماء الاجتماع الغربيّين لم يكتفوا بذلك، بل عمَّموا هذا الأَمْرَ على جميع الأديان - ومنها الإسلام - فظهرت مقولات مثل: «**الدين أفيون الشُّعوب**». وهكذا صار شعارُ علماءِ الاجتماع الغربيّين وأتباعهم العرب الشرقيّين محاربةَ الدين عامَّة والإسلام خاصّة، «**فكان من الطبيعي أن يحوِّلوا الحياة الإسلامية عن مجراها، ويدفعوا بها إلى طريق وعر شائك، لا تملك فيه إلا الارتماء في أحضانه [الغزو الفكري]، والخضوع لسيادته، وفقاً لما يفرضه هذا التحوّل من حاجات فكرية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية**»[١].

ومن الطبيعي، «**ما دام الخطّ الذي يجب أن يسير عليه الدستور لديهم هو مسايرة الحضارة الغربية والمفاهيم الأجنبية ذات البريق الخادع**» أن يتأثّر «**وضع النظم والقوانين - بما في ذلك النظم التعليمية والعلوم عامّة، والإنسانية خاصّة - في هذه البلاد [العربية والإسلامية]**»[٢].

يقول ماكس فيبر - وهو أحد كبار علماء الاجتماع الغربيّين، وقد صُنِّف من قبل علماء الاجتماع بصفته فيلسوفاً وجودياً -: «**إنَّ الطبيعةَ كما يفسِّرها العلم، وكما تعالجها التكنولوجيا، ليس فيها مُتَّسَع لسحر الدِّين وأساطيره القديمة. يجب أن ينسحبَ الإيمانُ ليعيش في عزلة مع الضمير**»[٣].

ويقول علي الكنز - أستاذ علم الاجتماع في جامعة الجزائر -: «**فهل يُمكن لنا أن ندلِيَ بأنَّ الوعي الديني أو التشبُّث بالدين هو مُزامن للفترات التراجعيَّة والمراحل المتقهقرة، وأنَّ الفكر العقلاني يُزامن الفترات التصاعدية أو المتطوّرة، ونقول: إنَّ ذلك هو تطبيقٌ للقانون التاريخي؟ وعليه، فإنَّ الدِّين هو بمثابة تعبير عن الحزن. ومِن هنا،**

(١) فضل الله، قضايانا على ضوء الإسلام، م.س، ص٨٨.
(٢) م.ن.
(٣) فيبر، ماكس: اعتراف علماء الاجتماع، ص١٧.

فهو انعكاس لبؤس العالم وشقائه. وعكس ذلك اعتبار الفكر العقلاني بمثابة تعبير عن حيوية الوعي الجماعي، الذي يعكس هذه المرَّة تطوُّر العالم وازدهاره»[١].

وهنا، شعر المسلمون بحاجتهم إلى أساليب وأدوات جديدة يصدّون بها هذا الهجوم المفاجئ، «**فكانت محاولات كثيرة عُدَّت بذرة لدراسات إسلامية جديدة، لا سيما بعد أن بدأ المسلمون يستفيدون من التقدّم العلمي الذي حدث في هذا القرن، من جميع النواحي، فأصبح لهم من هذه العلوم سند في ما يفسّرون وفي ما يعالجون من القضايا الإسلامية**»[٢].

ثانياً: تحديد المراد من أسلمة المعرفة:

حاول المعنيّون بمشروع (أسلمة المعرفة) و(أسلمة العلوم الإنسانية) والباحثون في قضاياها تعريف هذا المشروع - أي أسلمة المعرفة والعلوم - فخرجت عدّة تعريفات تحكي المقصود وتبيّن المراد:

فعرّفها أبو القاسم حاج حمد بأنّها: «**تعني فكّ الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الفلسفية الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف هذه العلوم ضمن نظام منهجي ديني غير وضعي. وهي تعني في ما تعنيه أسلمة العلم التطبيقي والقواعد العلمية أيضاً، وذلك بفهم التماثل بين قوانين العلوم الطبيعية وقوانين الوجود التي ركّبت على أساسها القيم الدينية نفسها، ولذلك تتمّ أسلمة الإحالات الفلسفية للنظريات العلمية، بحيث تنفي عنها البعد الوضعي، وتعيد صوغها ضمن بعدها الكوني الذي يتضمّن الغاية الإلهية في الوجود والحركة**».

وينبّه حاج حمد إلى أنّ «**إسلامية المعرفة لا تعني بحال مجرّد إضافة**

(١) كنز، علي: الإسلام والهوية، ص٩٩.
(٢) فضل الله، قضايانا على ضوء الإسلام، م.س، ص١٥٢.

عبارات دينية إلى مباحث العلوم الاجتماعية والإنسانية، باستمداد آيات قرآنية ملائمة لموضوعات العلم المقصود أسلمته، بل هي إعادة صوغ منهجية معرفية للعلوم وقوانينها، كما لا تعني مجرّد سحب الانتماء الذاتي للدين على جميع الموضوعات لإضفاء الشرعية الدينية على الإنجاز الحضاري البشري واستلابه دينياً بمنطلق الاحتواء اللاهوتي واللفظي»[١].

ويعرِّفها في كلام آخر بأنّها: «**بحث العلاقة الجدلية التي تربط ما بين الغيب الإلهي والإنسان والطبيعة، وهي علاقة تداخل وليست علاقة تضاد، - ولكنّها أيضاً - ليست علاقة حلول**»[٢].

بينما عرّفها عماد الدين خليل بأنّها: «**ممارسة النشاط المعرفي**» كشفاً، وتجميعاً، وتركيباً، وتوصيلاً، ونشراً من زاوية التصوّر الإسلامي للكون والحياة والإنسان... ولا تنسحب - فقط - على ما يسمّى بالعلوم الصرفة (المحضة) والتطبيقية في التعامل مع الوجود، وإنّما تمتدّ بالضرورة إلى ما يُعرف بدائرة العلوم الإنسانية، بل إنّها في هذه أشدّ ضرورة، لأنّها المعنيّة بترتيب وضع الإنسان في العالم وتنظيم حياته، بما يجعله قادراً على تحقيق مهمّته في العالم. إنّ إسلامية المعرفة ها هنا لا تعني فقط الدعوة إلى تحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية والمطالب الدينية على مستوى التطبيق، وإنّما تعني - قبل هذا وبعده - احتواء الأنشطة المعرفية على المستويين النظري والتطبيقي معاً، من أجل جعلها تتحقّق في دائرة القناعات الإيمانية، وتتشكَّل وفق مطالبها وتصوّراتها الشاملة، أسوة بالعلوم الأخرى»[٣].

أمّا محمد عمارة الذي يرى فكرة إسلامية المعرفة والعلوم الإنسانية في مصافّ المذهب، فيصفها بأنّها: «**المذهب القائل بوجود علاقة بين**

(١) انظر: الحاج حمد، أبو القاسم: منهجية القرآن وأسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية.
(٢) الحاج حمد، أبو القاسم: أبستمولوجية المعرفة الكونية (إسلامية المعرفة والمنهج): ص٣٧٩.
(٣) الحاج حمد، أبو القاسم: مجلة المسلم المعاصر. العدد٦٣، ١٩٨٨م، ص٥-٧.

الإسلام والمعارف الإنسانية، والرافض لجعل الواقع والوجود وحده المصدر الوحيد للعلم الإنساني والمعرفة الإنسانية... وهي المذهب الذي يقيم المعرفة على ساقين اثنتين: الوحي وعلومه، والكون وعلومه، وليس على ساق واحدة هي الوجود»[١].

بينما يرى عرفان عبد الحميد فتاح أنّها: «**عنوان لمنهج فكري في التثاقف الحضاري، ذي بعدين أو معنيين متضايفين: الأول منهما: ويراد به جهد الفكر الإسلامي المعاصر، وسعيه الحثيث من أجل هضم جميع ما أنجزه الفكر الغربي وتمثّله في بعديه: الحضاري المادّي، والثقافي المعنوي. أمّا الثاني: ففيه التنبيه على تحرير تلك المنجزات التي نشأت ضمن مفاهيم فلسفية لا دينية، ومادّية وإلحادية، وذلك بإعادة تفسيرها وربطها بإطار قيمي إسلامي موصول ومتّصل بالهدي الإلهي، الذي بلغ كماله وختامه بالإسلام**»[٢].

ويفضّل الدكتور طه جابر العلواني عدم حصر إسلامية المعرفة في إطار مغلق في حدّ جامع مانع، مثلما يرى بعضهم، «**لأنّها قبل ذلك وبعده: بناء لنظرية المعرفة التوحيدية التي تؤمن بأنّ للكون خالقاً واحداً أحداً... استخلف الإنسان وعلّمه ما لم يكن يعلم، وجعل الوحي مصدراً إنشائياً أساسياً لمعرفته والوجود مصدراً موازياً، وبقراءتهما في إطار التوحيد الخالص، تتكوّن المعرفة السليمة الرشيدة الهادفة، ومعرفة التوحيد والاستخلاف، والأمانة، والعمران، والشهود الحضاري**»[٣].

أمّا الدكتور علي حرب فقد فهم أنّ أسلمة المعرفة وإسلامية العلوم الإنسانية هي: «**ردّة فعل عقائدية على التفوّق المعرفي الغربي، وتغليب لعقلية الدعوة والنضال على لغة الفهم والمعرفة**»، وأنّها تعني «**أنّ**

(١) عمارة، محمد: مجلة المسلم المعاصر، العدد٦٣، ١٩٩٢م، ص٩.
(٢) فتاح، عرفان عبد الحميد: مجلة إسلامية المعرفة، العدد٥، ١٩٩٦م، ص٩.
(٣) العلواني، طه جابر: إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، ص١٢.

هناك منظومة معرفية تخصّ المسلمين وحدهم»[١].

بينما يرى العلامة فضل الله رَحِمَهُ اللَّهُ: أنّ أسلمة العلوم تعني طرح وجهة النظر الإسلامية في العلوم الإنسانية، من حيث بعض التفاصيل والخطوط العامّة، من دون أن نحوِّل تلك العلوم إلى علوم إسلامية بالمعنى الدقيق للكلمة، انطلاقاً من الفرق القائم بين العلم والنظرية[٢].

وبعبارة أخرى - وفقاً لبعض كلماته -: إنّ أسلمة العلوم تعني إنتاج نظريات ومذاهب في العلوم الإنسانية، وفق الأطر العامّة للإسلام، وضمن الرؤية الإسلامية للإنسان والكون - ولا سيما أنّه يؤمن بأنّ الإسلام يملك كياناً مستقلاً يتأصّل من خلال قواعده الأساسية، بحيث يمتلك المنهج والطريقة التي تكسب العلم حيثية الانتساب إليه-، حيث نخرج بنظرية ومذهب إسلامي في الاقتصاد - كما فعل الشهيد الصدر قَدَّسَ سِرُّهُ -، وبنظرية ومذهب إسلامي في (علم) النفس، والاجتماع، والسياسة، والفنّ، والتربية، و... ولذا كثيراً ما نراه يستشهد بمحاولات الشهيد الصدر قَدَّسَ سِرُّهُ، لتأسيس نظريات إسلامية - لا علوم إسلامية - في بعض العلوم، ويعلن تأييده له ويعتبره مفخرة الإسلام[٣].

فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يؤيِّد فكرة (محمد أبو القاسم حاج حمد) القائلة: إنّ إسلامية المعرفة لا تعني بحال مجرّد إضافة عبارات دينية إلى مباحث العلوم الاجتماعية والإنسانية، باستمداد آيات قرآنية ملائمة لموضوعات العلم المقصود أسلمته، فالمسألة لا تعني تبديل أسماء بأسماء، بحيث يكون الداعي إلى الإسلامية في أيّ علم من العلوم آخذاً بما قال الغربيّون من حقائق وبتفسيرهم لتلك الحقائق، أو آخذاً منهجهم العلمي في إدراك الحقائق الطبيعية والاجتماعية، ثمّ يسمّى ذلك علم نفس، أو اقتصاد، أو اجتماع إسلامي. بل هي إعادة صياغة منهجية معرفية

(١) حرب، علي: صحيفة الشرق الأوسط، العدد٨٩٧٢، ٢٠٠٣/٦/٢٢م.
(٢) انظر: فضل الله، الندوة، م.س، ج٢، ص٤٦٢.
(٣) انظر: فضل الله، الندوة، م.س، ج٣، ص٤٩٥، ٥٠٥، ج١٢، ص٥١٥.

للعلوم وقوانينها، انطلاقاً من إيمانه بأنّ «**الإسلام - بعقيدته وشريعته ومفاهيمه ومناهجه - يملك تصوّراً للكون وللإنسان والحياة، بحسب كيانه المعرفي والحركي، وأنّ هناك - في هذا العصر - أفكاراً وأوضاعاً ومتغيّرات عمّا ألفه المسلمون في العصور السابقة، ما يفرض على الفكر الإسلامي أن يواجه ذلك كلّه بالأصول الإسلامية المعرفية، وبالحركيّة الإسلاميّة في الواقع.**

إنّ المسألة ليست هي أن ينتظر المسلمون حتى يؤسِّسوا فكراً يواجه المتغيّرات أو التحدّيات، بل إنّ المسألة هي أن لا يبقى الإسلام الفكري والحركي في منأى عن الواقع، وأن لا يهرب من ساحة الصراع، وأن لا يواجه المتغيّرات - التي قد تتحوّل إلى تحدّيات، بحسب اختلافها مع الخطوط الفكرية الإسلامية - وأن لا يواجهها بطريقة اللامبالاة.

ونحن نؤكّد أنّ الإسلام يملك القدرة من خلال قواعده الثقافية - بكل تنوّعاتها- على أن يواجه الفكرة المضادّة التي ربّما جاء بها العصر، أو أن يقف من المتغيّرات موقف الباحث الذي يدرس كلّ مفردة من مفرداتها بطريقة موضوعية، يتعرّف من خلالها ما ينسجم منها مع الفكر الإسلامي فيلتقي به، وما يتنافى مع هذا الفكر فيناقشه.

إنّنا نعتقد أنّ الإسلام يملك حيوية ثقافية في مواجهة كلّ التحدّيات الفكرية التي تناقض فكره، أو تناقش فكره، أو تنحرف بالواقع عن مسار فكره. وليست المسألة أنّنا ننتظر أن يأتي الآخرون، لننتج فكراً جديداً، بل أن نحرِّك ما لدينا من فكر في مواجهة كلّ التحدّيات»[1].

وفي موضع آخر يقول: «**إنّنا نعتقد أنّ الإسلام يملك الكثير من الإمكانات في إنتاج المشروع الحضاري المتكامل. ولكن هناك مشكلة يواجهها الإسلام في هذه المرحلة المعاصرة، وهي: أنّ الحملة الظالمة التي يقوم بها الاستكبار العالمي - المتحالف مع الكفر العالمي - تمنع**

(١) فضل الله، محمد حسين: صحيفة المجد، ٢/٤/٢٠٠٠م.

الإسلام غالباً من أن يتحوّل إلى دولة. وبالتالي من أن يحوّل مناهجه ومشروعه الحضاري إلى واقع. ونحن نعرف أنّ المشروع الحضاري إذا لم يتحوّل إلى واقع، فإنّه لا يستطيع أن يعبِّر عن ذاته، وعن خصائصه الأصيلة.

تلك هي مشكلة الإسلام في هذا العصر. مثلاً: هناك نظرية اقتصادية على مستوى المذهب الاقتصادي في الإسلام، ولكن لن نستطيع أن نعرف قيمة هذه النظرية إذا لم نحوّل هذا المذهب الاقتصادي إلى حركيّة في عالم الاقتصاد الإنساني الموجود في العالم»[١].

إذن، فأسلمة العلوم الإنسانية مفهوم صحيح ومسألة ممكنة، حسب ما يراه العلامة فضل الله رحمه الله، بل هو من الداعين إلى هذا المشروع الحضاري الإسلامي، كما صرَّح بذلك، حيث قال: «**كنت منذ البداية أؤكِّد على أسلمة المجتمع حتى في أسلمة العلم. وكنّا نؤكِّد على أنّ من الضروري أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة**»[٢]، لكن لا بمعنى معالجة العلوم القائمة، والتي تكاملت في غالبها في البلدان الغربية، من خلال إجراء عملية الأسلمة عليها، بهدف جعلها قابلة للتطبيق في مجتمعاتنا الإسلامية، بل أنّ يتمّ القيام بعمل معرفي على قاعدة إبداع أسس العلوم الإنسانية الإسلامية، ومعرفة أساليب تلك العلوم في ضوء الرؤية الإسلامية الشاملة، ومن ثمّ يجري العمل من خلالها على تقنينها، للخروج بنظريات في تفسير ظواهر العلوم الإنسانية. وعندها يمكن إبداع علوم إنسانية - بعد قوننتها إسلامياً - بنحو مختلف عمّا هو موجود في الغرب.

يقول رحمه الله في هذا المجال: «**نحن، بوصفنا مسلمين، ندعو إلى أسلمة العالم، اقتصادياً، وسياسياً، وأمنياً**»[٣].

(١) فضل الله، محمد حسين: صحيفة المجد، ٣/٤/٢٠٠٠م.
(٢) م.ن.
(٣) انظر: فضل الله، محمد حسين، الندوة، م.س، ج٤، ص٤٩٣.

ثالثاً: موقفه رَحِمَهُ اللَّهُ من ذرائع المناهضين لمشروع أسلمة العلوم الإنسانية:

انقسم المناهضون لمشروع أسلمة العلوم الإنسانية إلى عدّة اتّجاهات يمكن إيجازها بالتالي:

١. رفض أصل المشروع لجهة عدم قدرة الإسلام على إعطاء ما تحتاجه الإنسانية في مجال المعارف الطبيعية والعلوم الإنسانية، فلا يوجد في الإسلام علم يتناول الاقتصاد أو التربية أو القانون أو السياسة أو الفنّ أو... إذ المصدر الأساس للمعارف هو القرآن والسنّة، وكلاهما لا يتضمّن تلك العلوم[١]، وبالتالي نحن بحاجة إلى الثقافة الغربية والتكنولوجية والتقدّم العلمي الذي امتازت به الحضارة الغربية.

٢. اتّجاه آخر رفض الفكرة، واستدلّ على مدّعاه بعدّة أدلّة، منها[٢]:

أ- رفض ما يسمّى بأسلمة المعرفة، مع التأكيد على أنّ هذه الدعوى مصادرة على المطلوب، لأنّها تشترط على الباحثين أن يقرّوا بنتيجة قبل أن يسيروا في بحوثهم، وهو أن تأتي نتائج أبحاثهم متّفقة مع العقيدة الإسلامية.

(١) وقد ذكروا في مقام بيان ذلك:
- أمّا بالنسبة للقرآن:
- فإنّ مهمّة القرآن الكريم دينية اعتقادية وليست علمية.
- ينبغي ألا نقحم النظريات العلمية في القرآن، أو نعتبر أنّ القرآن مُطالب بموافقتها.
- إنّ إدخال التفسيرات العلمية على الإشارات القرآنية لا بدّ أن يفضي - عما قريب أو بعيد- إلى الصراع بين الدين والعلم.
- إنّ التفسير العلمي يحمل أصحابه على تأويل القرآن تأويلاً متكلّفاً.
- إنّ التفسير العلمي بدعة حمقاء، ودفاع فاسد عن إعجاز القرآن.
- وأمّا بالنسبة للسنّة: فإنّها شارحة للقرآن ومفسّرة لما فيه ليس إلا.

(٢) انظر: محمود، زكي نجيب:
- هموم المثقفين، بيروت - القاهرة، دار الشروق، ١٩٨١م.
- أفكار ومواقف، بيروت - القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٣م.
- مفترق الطرق، بيروت- القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٥م.
- بذور وجذور، بيروت - القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٠م.
- رؤية إسلامية، بيروت - القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧م.

ب- إنّ في هذه الدعوة ميلاً عاطفياً يدفع الإنسان إلى عدم التزام الموضوعية.

ج- إنّ في هذه الدعوة نوعاً من التعصّب، لا يرينا من الموقف إلا ما نتمنّاه، مع أنّه في العلم يجب أن تُذكَر الحقيقة كما هي في الواقع.

د- إنّ في هذه الدعوة خطورة أن يتحوّل العلماء إلى تلاميذ يكرِّسون كلّ جهودهم لقراءة كتب الأسلاف، بدلاً من الاطّلاع على أحدث ما توصَّل إليه الغرب في مجال هذه العلوم.

هـ- إنّ المنهج الواجب استخدامه في العلوم الإنسانية هو المنهج التجريبي، وهو منهج واحد عند الجميع، باختلاف العقائد الدينية لأصحابه.

و- إنّ طبيعة هذه العلوم متجدِّدة، لأنّ مشكلات الحياة تتجدّد باستمرار، ولا نستطيع أن نقف عند مشكلات المسلم القديم، فالذي قابله ابن خلدون - مثلاً - من مشكلات، غير ما يلقاه الباحث العلمي الآن.

ز- إنّ النتيجة التي نصل إليها في هذه العلوم هي نتيجة علمية، لأنّها التزمت بالمنهج العلمي، بصرف النظر عن موضوعها أو عالمها، وتطبَّق على الإنسان في كلّ مكان، بصرف النظر عن عقيدته.

٣. وأمّا أصحاب الاتّجاه الثالث فقد طعنوا في أهداف أصحاب هذا المشروع، حيث استعرضوا بعض الأهداف الظاهرية: «**أمَّا الأهداف الحقيقيَّة لهذا المشروع، فتتلخَّص في التالي:**

أ- إضفاء الشرعيَّة على علوم أوروبية الصُّنع، ليستْ حِيادية، كالعلوم الطبيعيَّة، وإنَّما ذات موقفٍ خاصّ من الدِّين، فهي قد نشَأت أصلاً لتُزيح الدِّين، وتحلّ محلَّه، وتجعل الإنسانَ محورَ الكون بدلاً مِن الله، وترى أنَّ الدين من صنع الإنسان، وأنَّ التجرِبة الدِّينيَّة الآن مواجهةٌ مع الله وتحدٍّ له، ومِن ثَمَّ فهي فاسدةُ الأصل، وفساد الأصل لا بدَّ أن يمتدَّ إلى كلِّ فروعه.

ب- إفساد المقصَد مِن الشريعة وضَرْب الفقه الأوَّل، وذلك بتلقيحِ

الشريعة بمعطيات هذه العلوم، مع تحميلِ هذا الفقه أوزارَ تخلُّفِ المسلمين، وما يُسمُّونه بتشويهِ شخصيّاتهم، ومِن ثَمَّ إزالة هيمنتِهما على العقل المسلِم.

ج- استبعاد مفاهيمِ الحقِّ والباطل، والإيمان والكُفْر، والفِرقة الناجية والفرق الهالكة، وغير ذلك مِنَ المفاهيم المحوريَّة في الإسلام، بحيث تكون آخِرَ ما يُرجَع إليه.

د- تحويل المقولة القديمة القائلة: «**قدْ نزعْنا راية الإسلام من أيدي الجهلة - ويقصد بهم علماءَ الدين - وصار إلى أقلامِنا المرجعُ الأوَّل في شرْح أصولِ الدِّين**»، إلى واقعٍ ملموس.

وقد وصَف الشيخ مصطفى صبْري هذه الأقلامَ بأنَّها أقلامٌ تنتقص خَزائن الإسلام الفِقهيَّة، التي ورثْناها من السَّلَف بأصولها وفروعها، وتفتح حصونَ العلوم بأسلحة مطليَّة بالذهبِ بدلَ الفولاذ المحض[1].

ويمكن لنا أن نقارب جواب العلامة فضل الله رَحِمَهُ اللَّهُ عن ما تقدّم من خلال بعض كلماته التي ترتبط بروح الموضوع، فما يمكن أن يدفع به الاتّجاه الأوّل هو: أنّه لماذا نأخذ تلك العلوم والمعارف من الغرب إذا كان لها أساس قرآني؟ فعلينا أن نقرأ القرآن - مع اعتقادنا بأنّ القرآن ليس كتاباً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة - ونفسِّره ونكتشف ما فيه، لنعرف الأسس المعرفية والعلمية التي ينطلق منها. ومع هذا، لا يكفي أن تكون هناك عناوين لبعض الأشياء في القرآن، بل علينا أن نؤصّل المفاهيم والمعارف والعلوم الإنسانية التي أشار إليها القرآن الكريم، حتى لا نخلط بين العلوم الغربية التي ترتكز على فلسفة معيّنة، والقيم الإسلامية التي ترتكز على قاعدة معيّنة، فقد يتّفق الغرب معنا أحياناً وقد لا يتّفق، فهم لهم قواعدهم الفكرية ولنا قواعدنا الفكرية[2].

(١) انظر: صبري، مصطفى: موقف العقل والعلم والعالَم مِن ربِّ العالمين وعباده المرسلين، ج٢، ص١٥٢.
(٢) انظر، فضل الله، الندوة، م.س، ج١٢، ص٥٠٩.

كما أنّ السنّة النبوية وما ورد عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام لا يخلوان من الإشارات إلى بعض النظريات والمناهج العلمية[١].

على أنّه يمكن إجراء قراءة فرزيّة للمنظومة المعرفية الغربية بكلّ ما تحويه من حقول وتخصّصات، واستخلاص ما يتوافق مع الرؤية الإسلامية من تلك المعارف، وتجنّب ما هو منحاز منها وخاضع للخصوصية الثقافية الغربية.

وأمّا الجواب عن الاتّجاه الثاني، فيتّضح ممّا تقدّم عند الحديث عن معنى أسلمة العلوم، إذ إنّ الكثير ممّا ذُكِرَ مبني على فهم خاطئ لمشروع الأسلمة.

وكذا الاتّجاه الثالث، فإنّ ما ذُكِرَ حصيلة رؤية خاصّة تفسِّر أسلمة العلوم الإنسانية بأنّها تعني فقط الدعوة إلى تحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية والمطالب الدينية على مستوى التطبيق، أو تعني مجرّد إضافة عبارات دينية إلى مباحث العلوم الاجتماعية والإنسانية، باستمداد آيات قرآنية ملائمة لموضوعات العلم المقصود أسلمته، وأنّها تعني مجرّد سحب الانتماء الذاتي للدين على جميع الموضوعات، لإضفاء الشرعية الدينية على الإنجاز الحضاري البشري واستلابه دينياً، بمنطلق الاحتواء اللاهوتي واللفظي، وهذا ما نفيناه سابقاً، فإنّ الدعوة إلى أسلمة العلوم والعلوم الإنسانية بالمعنى المعقول للفكرة لا تعني أبداً التخلّي عن معتقداتنا وعن المبادئ الإيمانية التي نؤمن بها، ولا يلزم من ذلك التنازل عن المفاهيم الدينية، بل على العكس، فإنّ في المشروع المُقترح - الأسلمة - إعلاء للإسلام والقيم الإسلامية والمفاهيم الدينية، وفي تركه فسح للمجال أمام الغزو الغربي، كي يتنامى ويقوى في مجتمعاتنا الإسلامية ومؤسّساتنا التعليمية. وبالتالي سنحتاج إلى الغرب في مجال العلوم الإنسانية، كما نحتاج إليه في العلوم التكنولوجية، فنكون أسرى له ذليلين. وهذا واضح لمن تأمّل.

(١) فضل الله، الندوة، م.س، ج١، ص٤٣١.

وفي هذا المجال، عندما سُئِل العلامة فضل الله رَحِمَهُ اللهُ: لماذا يحتاج المسلمون في هذا الوقت إلى الغرب والكفر، رغم أنّ الإسلام هو كمال العلم والإنسانية؟! أجاب: «**لأنّ المسلمين لم يأخذوا بالإسلام، ولم يأخذوا بما يريد الإسلام للمسلمين أن يرتفعوا به إلى المستوى الذي يستطيعون أن يحرّكوا العقل في حياتهم، وأن ينفتحوا على الأخذ بأسباب العلم في حياتهم. لذلك قال بعض الغربيّين عندما جاء إلى الشرق ودرس الإسلام: «الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر»**. وكان بعضهم يقول: إنّه لو كان الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ موجوداً الآن لرأيت مسجد الكوفة مملوءاً بالقبعات الغربية أو الألمانية، ولما وجدت فيه موطئاً لقدم عربي واحد، لأنّهم لم يتوافروا على الارتفاع إلى المستوى الذي أراده عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم، واستغرقوا في عصبيّاتهم الضيّقة»[1].

إذن، فالحاجة ملحّة وضرورية لإنجاز المشروع، طالما أنّ العلوم الإنسانية والاجتماعية هي - كما عرفنا - نتاج العقل الغربي والتربية الغربية، فإنّه يقتضي - ومنذ البدء - إيلاء إعادة بناء هذه العلوم، أسلمة وتكييفاً وتوطيناً، الاهتمام الكافي، والعمل الدؤوب، إسهاماً في إنجاحه، وذلك لا يتمّ بالتوفيق بين النصوص الدينية ومفردات هذه العلوم، ولا بمجرد استعراض إسهامات العلماء المسلمين فيها، بل بتأصيلها من منطلق المنهج المعرفي الإسلامي ومرتكزاته، وفق الرؤية الإسلامية.

«**إنّ الحضارة الإسلامية استطاعت أن تعطي الغرب القاعدة الحضارية، حيث كان الغرب سابقاً يأخذ في مصدر المعرفة بالتأمّل فقط، وجاءت الحضارة الإسلامية من خلال الأندلس الذي انفتح على الغرب كلّه، فأعطى التجربة، بوصفها مصدراً ثانياً للمعرفة. واستطاع الغرب أن يتقدّم من خلال التجربة. ونحن نعرف أنّ الغرب**

(١) فضل الله، الندوة، م.س، ج١٩، ص٥٤٦.

كان يقرأ كتب ابن سينا وكتب العلماء المسلمين المتخصِّصين في كلّ المجالات حتى الطبّيّة. حتى أنّ جابر بن حيان الذي هو تلميذ الإمام الصادق عليه السلام في الكيمياء، كان فكره يُدرَّس في المدارس الغربية، وقد قال نهرو في كتابه (لمحات في حضارات العالم): «إنّ الحضارة الإسلامية هي أمّ الحضارات في العالم». ولذلك نحن نقول: إنّ قضية صنع الحضارة بالمعنى العلمي، تنطلق من خلال الخطوط التي تنطلق فيها حركة الفكر وقاعدته»[1].

رابعاً: هدف المشروع:

ذكر دُعاةُ مشروع أسلمة العلوم الإنسانية أهدافَه في إعادة صِياغة العلوم في ضوْء الإسلام، بما يؤدِّي إلى أسلمةِ العلوم، ومن هذه الأهداف:

١- فَهْم العلوم الحديثة واستيعابها في أرْقى حالات تطوُّرها، والتمكُّن منها، وتحليل واقعِها بطريقة نقديَّة، لتحديد جوانبِ القوة والضَّعْف فيها مِن وجهة نظَر الإسلام. فـ «**لا بدّ لنا من أن نطلّ على حركة العصر في كلّ تطوّراته، وكلّ متغيّراته، وكلّ مشاكله، حتى يمكننا أن نعيش عصرنا، وأن نفهم لغته وذهنيّته**». وذلك لا يتحقّق إلا من خلال «**ثقافة إسلامية تنطلق من أصالة الإسلام في مفاهيمه وعقائده وشرائعه ومناهجه وأساليبه**»[2].

٢- فَهْم إسهاماتِ التراث المنطلِقة من فَهْم المسلمين للكتاب والسُّنَّة، في مختلف العصور، وتحديد مواطن الضعْف والقوَّة في ذلك التراث على ضوءِ حاجة المسلمين في الوقتِ الحاضر، ووفق ما كشَفتْ عنه المعارفُ الحديثة.

٣- القيام بتلك القَفْزَة الابتكاريَّة الرائدة اللازمة، لإيجادِ تركيبة تجمَع بين معطياتِ التراث الإسلامي وبيْن نتائج العلومِ العصريَّة، ما

(١) فضل الله، الندوة، م.س، ج١٩، ص٥٤٥.
(٢) انظر: م.ن، ج٤، ص٤٩٠-٤٩١.

يساعد في تحقيقِ غايات الإسلام العُليا.

٤- تنمية الوعي النقدي بشأن العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية، واستيعاب الرؤية المنهجية الإسلامية، واتّخاذها محكّاً للتمييز بين ما يُعدّ أيديولوجياً أو حقيقة مطلقة أو نسبيّة ضمن تلك العلوم.

٥- تحصين العقل المسلم - على نحو نقدي - من عمليات الغزو الثقافي والتشويهات المعرفية، النفسية، والتربوية، والاجتماعية، والسياسية، والتنموية، والدولية، والإعلامية السائدة، وخاصّة تلك التي تدور حول الإنسان والمجتمع في العالم الإسلامي، وتوفير القدرة على تفكيكها وإرجاعها إلى عوامل تحيّزها.

٦- تقديم البديل التربوي، فكراً، وسياسات، واتّجاهات، بما يساعد على تكوين الفرد والجماعة بالصورة التي يرتئيها الإسلام، وتقتضيها ضرورات الواقع ومقتضيات التغيّر.

٧- الاطّلاع على النظريات والنظم الإسلامية المختلفة، ثمّ مقارنتها بالنظريات والنظم الأخرى، واستنباط بعض الأفكار والمفاهيم من واقع التجارب الإسلامية السابقة، وإمكانية الاستفادة من هذه التجارب في بناء النظرية السياسية الإسلامية المعاصرة.

٨- تقديم الفكر الإسلامي النقي في مجالات العلوم الاجتماعية للعالم أجمع بالأسلوب المناسب، حتى يعرف أصحاب المذاهب الاجتماعية والنفسية والتربوية الأخرى ما تتميّز به المدرسة الإسلامية من سمات وخصائص عظيمة منبثقة من عظمة الدين الإسلامي وسموّه وقدرته على إيجاد الحلول لكلّ المشكلات التي تواجه الإنسان في كلّ عصر ومصر.

وفي معرض الجواب عن سؤال يتعلّق بالعولمة يقول العلامة فضل الله رَحِمَهُ اللَّهُ - بعد أن تكلّم عن العولمة السياسية في الدائرة الأولى -: «**أمّا الدائرة الثانية للعولمة، وهي: الدائرة الثقافية، فإنّ علينا أن ندرس ماذا تعني العولمة الثقافية؟! هل تعني أن يلتقي العالم على الأبعاد**

الإنسانية الثقافية التي ترصد الجانب الإنساني في كلّ ثقافة، ليمتدّ في كلّ مواقع الشعوب الأخرى، بحيث تلتقي الشعوب - في الجانب الثقافي - بالأبعاد الإنسانية التي تلتقي عليها ثقافاتها؟ فهذا أمر نرحّب به، ونعتبر أنفسنا - بصفتنا مسلمين - معنيين بذلك، لأنّنا نرى في الثقافة الإسلامية البعد الإنساني المنفتح على كلّ الإنسان في العالم، باعتبار إنسانية الإسلام في دعوته الشاملة للعالم كلّه.

ولذلك، فإنّ أيّ فرصة لانفتاح العالم على البعد الإنساني في ثقافات الشعوب تمنحنا فرصة إطلاق الإسلام في بعده الإنساني، ليتعرّف عليه كلّ العالم، ليجدوا فيه الخلاص من كلّ المشاكل، وكلّ الأوضاع السلبية التي يعيشونها. وتبقى لكلّ شعب من الشعوب خصوصيّاته التي تتّصل ببعض أوضاعه أو بعض مفرداته الواقعية»[١].

وهذه الأهداف كلّها تدخل في مفهوم البناء الحضاري للإسلام- الذي يراه العلامة فضل الله رحمه الله ونظّر له طوال حياته - وفي مفهوم التجديد للرؤية الإسلامية. وقد تعرّض لها العلامة فضل الله رحمه الله في بعض كلماته[٢]. وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: «**إنّنا نعتبر الإسلام الحضاري الذي استطاع - وإن لم يطبَّق بأجمعه - أن يُنشئ الحضارة الإسلامية، عندما اعتبر العلم قيمة أساسية، وكذلك العمل، وحمّل الإنسان المسؤولية عن كلّ مجالات الحياة، وعندما ربط المجتمعات بشبكة من العلاقات التي تبدأ من علاقة الرحم إلى أن تنتهي إلى كلّ العلاقات الموجودة في الحياة**»[٣].

(١) انظر: فضل الله، صحيفة المجد، م.س، ٣/٤/٢٠٠٠م.

(٢) انظر: فضل الله، الندوة، م.س، ج١، ص٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٧، ج٤، ص٤٨٦-٤٩٣، فضل الله، قضايانا على ضوء الإسلام، م.س.

(٣) انظر: فضل الله، الندوة، م.س، ج٤، ص٤٨٦.

خاتمة:

«إنّ الإسلام ينفتح على العلم بكلّ أبعاده، وهو الذي اعتبر العلم قيمة فوق القيم، ورأى أنّ «قيمة كلّ امرئ ما يحسنه»[١]، كما جاء عن الإمام علي عليه السلام، وكما جاء في القرآن: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[٢]، **﴿وقل ربّ زدني علماً﴾**[٣].

لذلك فإنّنا ننفتح على كلّ حركيّة العلم التي تعطي الإنسان معرفة أوسع وأكثر وأغنى. ولكنّ المسألة هي: أنّ العلم لا قلب له. وبذلك فإنّه قد يتّجه إلى تدمير الإنسان عندما يكون سلاحاً ذا حدّين.

لهذا، فإنّ دور الإسلام في بُعده الروحي الذي يربط الحياة كلّها بالله، والذي يريد للعلم أن يتواضع أمام الله، باعتبار أنّ العلم ينتج ما أنتج من خلال هذا العقل الذي خلقه الله في الإنسان، وأنّ العلم عندما ينفتح على أسرار الكون، فإنّه يتعرّف إلى أسرار خلق الله، وبالتالي إلى أسرار الكون كلّه. وكلّما انكشف له أفق جديد من الكون انفتح له أفق من الإحساس بالجهل، لأنّ هناك آفاقاً أخرى كثيرة.

لذلك، نحن نريد أن نضع الله في قلب العلم، وفي قلب التكنولوجيا، حتى إذا سارت التكنولوجيا وسار العلم في كلّ أبعاده مع الله، وجعله يشعر أنّ عليه ألا يبتعد عن إرادة الله، في احترام إنسانية الإنسان، وفي المحافظة على السلام في الكون كلّه، وعلى حماية كلّ شيء في الكون، بما فيه بيئة الحيوان، وبيئة الإنسان. ومن هنا، يتحوّل العلم إلى حالة يتعبّد فيها العالم لله في المصنع، وفي المختبر، لأنّه يتحرّك في كلّ ذلك في عالم الله من خلال حركته في معرفة أسراره في الخلق»[٤].

(١) ابن بابويه، محمد بن علي: الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، ط١، قم المقدّسة، مؤسّسة البعثة، ١٤١٧هـ.ق، ص٥٣٢.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) طه: ١١٤.
(٤) انظر: فضل الله، صحيفة المجد، م.س، ٣/٤/٢٠٠٠م.

التحلّة الجامعة للعلم الديني - قراءة في أطروحة آية الله الشيخ جوادي الآملي -

الدكتور عبد الحسين رضوي